الفصل الرابع

جدلية العلاقة بين الاستراتيجية والعلاقات الدولية (مقاربة تاريخية)

أن الحديث عن الاستراتيجية والعلاقات الدولية لهو امر في غاية الصعوبة في محل، ويعد من الامور الصعبة جدا لغير المختصين في العلوم السياسية والاستراتيجية والدراسات الدولية، وذلك بسبب الكمية الهائلة من المفاهيم المتداخلة ما بين الحقلين العلميين الأكاديميين والذي يدفع الحقلين إلى التجادل المفاهيمي بحيث أصبح كل حقل منهم مستقلاً بذاته، ولكن على الرغم من هذا التداخل الكبير بين الحقلين يوجد هناك فسحات للالتقاء والتلاقح الفكري الاكاديمي يدفع إلى تطوير الحقلين معا، ويزيد من أواصر الترابط بين المصطلحين و تؤكد على أن حقل الاستراتيجية هو الاشمل والاعم و تتفرع منه كافة الحقول الاخرى كالعلاقات الدولية والتي تعد المحور الرئيسي لهذا الطرح.

وفيما يتعلق بمصطلح الإستراتيجية حيث اصبح مصطلحاً سارياً ومألوفاً ومشاعاً تعودنا كثيرا أن نسمعه في حياتنا اليومية، ونقرأه في الكثير من الادبيات الاكاديمية، وانتشر هذا المصطلح في جميع مفاصل الحياة العلمية والعملية والسياسية والاقتصادية والعسكرية والاجتماعية والمعلوماتية والتجارية والصناعية ... إلخ، حيث امتد استخدامه إلى الأشخاص والأماكن والمواقع والأفكار والمفاهيم والإمكانات مثل، هذا الانسان يملك رؤى إستراتيجية وهذا الموقع إستراتيجي، وهذه فكرة إستراتيجية وهذا التصرف استراتيجي، وهذا التحرك استراتيجي، والدولة(a) لديها قدرات موظفة (طرق حل) إستراتيجية، والدولة (b) لديها دور إستراتيجي في المنطقة الفلانية. والكثير من المستخدمين والمستهلكين لهذا المصطلح الرنان والبراق والذي يظفي لمستخدمه بعد نفسي كبير حين استخدامه بحيث يشعره بأنه ينطق بكلمات لها أبعاد غامضة تجاه الشخص المتلقي ولكن الكثير لا يدركون بعده العلمي والمعرفي الهام ومفهومه الأساس، وعلى هذا الاساس لن أقدم شرح لمفهوم العلاقات الدولية والاستراتيجية لأنها أشبع يحثا ولا اريد أن عيد واطيل واكرر ما قدمه الآخرين، ولكن سوف أكتفي بالتطرق إلى مجال العمل والشمول والعمق التاريخي لكلى المفهومين وسوف ابدأ بالعلاقات الدولية:

تاريخ استخدام مصطلح العلاقات الدولية

استخدمت كلمة دولية (International) لأول مرة من قبل جرمي بنثام في الجزء الأخيرة من القرن الثامن عشر بالرغم أن ما يناظرها في اللغة اللاتينية قد استخدم من قبل ريجاد زوك قبل قرن من ذلك وقد استخدم الناس هذه الكلمة لتعريف فرع القانون الذي أخذ يطلق عليه "قانون الأمم" أو "قانون الشعوب" وهو اصطلاح للقانون الروماني يشير إلى المبادئ التي كان يطبقها الرومان في القضايا التي تتضمن علاقات مع أجانب.. ثم استخدم المصطلح بعد ذلك من قبل أولئك الذين درسوا الروابط الدولية تحت الإطار القانوني فقط، وكان رجال القانون يسعون إلى تحديد مضمون القواعد الواجبة التطبيق بين اللاعبين في المسرح الدولي والعمل على ترجمتها إلى الواقع والتحقق من تطبيقها، إن مصطلح (International) استخدم بوصفه حاجة حقيقية لتعريف العلاقات الرسمية بين الملوك، وربما تعد كلمة بين الدول (Interstates) أكثر دقة في تعبير الدولية لأن مصطلح الدولة في العلوم السياسية هو المصطلح الذي ينطبق على مثل هذه المجتمعات، إن الدراسة العلمية للعلاقات الدولية تنطوي على دراسة الظواهر الدولية بشكل موضوعي وشامل وإلقاء الضوء على الأسباب والعوامل المحددة لتطورها والعمل على تطوير نظرية منها. أنها تعني ايجاد "انتظام" أو "ثوابت" أو "قوانين" بالمعنى الذي ذهب إليه مونتسكيو، أي ايجاد روابط ضرورية تشتق من طبيعة الأشياء ولفترة طويلة استخدم مصطلح الدولية للاشارة إلى العلاقات بين الدول فقط، في وقت لم تكن العلاقات الدولية تعني سوى العلاقات بين الدول. ولا شك أنها نظرة قاصرة لجوهر العلاقات الدولية الذي يعكس اليوم ساحة واسعة ومتشابكة من التفاعلات بين كيانات عديدة ومختلفة الطبيعة.

تاريخ استخدام مصطلح الاستراتيجية

ظهرت بواكير المؤلفات في هذا المجال قبل أكثر من عشرين قرنا على يد بعض العسكريين الصينيين تلتها مؤلفات أخرى لعسكريين ومفكرين اغريق ورومان وعرب وأوروبيين تناولت جميعها بعض المفاهيم والمبادئ الأساسية والتفصيلية للحرب، مما نتج عنه نشوء فرع جديد من فروع المعرفة الإنسانية اصطلح على تسميته (الفن العسكري) أو (الفن الحربى)، ولكن على الرغم من ولادة الإستراتيجية كمفهوم في الحظن العسكري والحربي إلا أنها استطاعت أن تكون لها مفهوم جامع بفعل التطورات الكبيرة التي حدثت في المجتمعات

واساليب الحروب وإدارة الدول خصوصاً بعد تطور المجتمعات وتطور طبيعة الحياة وزيادة المتطلبات البشرية، وحصول الترابط بين الحرب من جهة وبين السياسة والمجتمع من جهة أخرى، قد نقل مفهوم الإستراتيجية جزئياً من ميدان الحرب إلى ميدان السياسة، بحيث أصبحت الفعل العسكري هو أحد ادوات الإستراتيجية ويعد أحد تفرعاتها الكثيرة إلى جانب السياسة والاقتصاد وغيرها من الأدوات التي سخرتها الاستراتيجية لكي تحقق غاياتها.

إن القفزة الكونية التي حدثت بشتى المجالات، ومنذ فترة ليس بقصيرة (قرن من الزمان) ادخلت الاستراتيجية في جميع مفاصل الحياة، ولما أصبحت الحرب في القرن العشرين حرب الأمة والشعب بسبب ما أملته الحرب العالمية الاولى و الثانية من تطورات تقنية في منظومات السلاح وولادة السلاح النووي، وما أملته الحرب الباردة، وما بعدها من أحداث وبروز دور حركات التحرر في العالم من تأكيد اعتمادية الحرب على موارد الأمة وإمكاناتها، أضحت الإستراتيجية كذلك إستراتيجية شاملة باستخداماتها لموارد الأمة كافة وشاملة في أهدافها لتحقيق طموحات الأمة فتنادى المعنيون يؤكدون هذه الحقيقة مسبغين على الإستراتيجية مفهوم الإستراتيجية الشاملة بحيث خرجت الاستراتيجية من الايادي العسكرية،ودخلت الاستراتيجية الحقول كافة ووصفة الاستراتيجية بالشمول هي من أهم المميزات التي تنفرد بين الاستراتيجية عن العلاقات الدولية.

حيث كثر الجدل ومنذ فترة ليست بقصيرة حول حقل الاستراتيجية والعلاقات الدولية والطبيعة الشمولية لكلى المفهومين، لدرجة صار البعض يتحدث عن أن العلاقات الدولية تعد الاشمل من الاستراتيجية، بل أنه يعد الاستراتيجية هي جزء من العلاقات الدولية وأدة من أدواتها، ولكن هذا الكلام غير دقيق ومصحوب بعواطف أكثر من أنه يسند إلى أسس علمية بحيث يبخس من حق الاستراتيجية، ولا اتحدث هذا الحديث بسبب كوني مختص بالاستراتيجية ولكن هذه حقيقة أن الاستراتيجية اشمل واعم من العلاقات الدولية وهذا الكلام مقترن بحقائق تاريخية أهماها:

إن مفهوم مصطلح قد ظهر منذ فترة طويلة جداً كما ذكرنا (حوالي أكثر من عشرين قرن)، وأن كان قد استخدم هذا المفهوم للدلالة على المصطلحات العسكرية والحروب وقيادة المعارك، إلا أنه

كان هناك مفهوم للاستراتيجية، بينما العلاقات الدولية لم تظهر كمفهوم إلا في نهاية القرن الثامن عشر على لسان جيرمي بنثام-أي أن هناك فارق تاريخي بالظهور بحوالي ١٨ قرن بين المفهومين-عندما استخدم هذا المصطلح لأول مرة في تلك الفترة، وعلى الرغم من أن هذا المفهوم لم يأطر إلا على يد جيرمي بنثام في نهاية القرن الثامن عشر إلا أنه كان يستخدم بغير تسمية وهي قانون الامم والشعوب لدى الرومان، يتفق معظم علماء السياسة على أن العلاقات الدولية (كما تعرف اليوم) نشأت منذ مؤتمر ويستفاليا عام ١٦٤٨، وقد مرت العلاقات الدولية منذ تلك الفترة (معاهدة وستفاليا) إلى حد الآن بـ (ستة مراحل) سنوردها لغرض توضيح أن الاستراتيجية كمفهوم ظهرت قبل ظهور مفهوم العلاقات الدولية وهذا ما تأكده المراحل التي مرت بها العلاقات الدولية من خلال حقبها التاريخية التالية:

المرحلة الاولى: من معاهدة وستفاليا عام ١٦٤٨ حتى مؤتمر فينا عام ١٨١٥. حيث تميزت هذه المرحلة بان العلاقات الدولية فيها كانت محصورة في تلك العلاقات التي تنشا بين الدول القومية ذات السيادة بحيث لا تشمل أي نوع من الهيئات او الجماعات التي لا تتوافر لها مقومات الدولة وخصائصها مهما كان دورها في المجتمع الدولي.

المرحلة الثانية: من مؤتمر فينا عام ١٨١٥ حتى اندلاع الحرب العالمية الأولى. وتميزت هذه المرحلة بتطور العلاقات السياسية الدولية، حيث سُجل تطور نوعي في قرارات المؤتمر والتي انعكست بمجملها في أقرار توازن دولي جديد يأخذ على عاتقة مهمة الأمن والاستقرار في أوربا.

المرحلة الثالثة: من انتهاء الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٩ حتى اندلاع الحرب العالمية الثانية. وتميزت ببروز نظام الأمن الجماعي، حيث تبلور هذا المفهوم بإنشاء عصبة الأمم بمقتضى معاهدة فرساي في ٢٨ يونيو ١٩١٩.

المرحلة الرابعة: من عام ١٩٤٥ (انتهاء الحرب العالمية الثانية وتأسيس منظمة الأمم المتحدة في ٢٦ يونيو ١٩٤٥) حتى انهيار المنظومة الشيوعية وتفسخ الاتحاد السوفيتي ونهاية أزمة الخليج الثانية

١٩٩١، والبعض حدده بعام ١٩٨٩وذلك بانهيار حائط برلين. وأهم ما يميز هذه المرحلة هو ما يسمى بالحرب الباردة الذي تحول أثنائها النظام الدولي إلى القطبية الثنائية (الولايات المتحدة ولاتحاد السوفيتي)، وفي الفكر الأيديولوجي الصدام بين الشيوعية والرأسمالية.

المرحلة الخامسة : من عام ١٩٩٢، حتى سبتمبر ٢٠٠١، وهي الفترة التي أعقبت انهيار المنظومة الشيوعية، وتوحيد ألمانيا الشرقية والغربية، وتفسخ الاتحاد السوفيتي، واندلاع أزمة الخليج الثانية ١٩٩٠-١٩٩١، مما يعني اختفاء أحد القطبين و بداية تحول النظام إلى نظام أحادي القطبية باستفراد الولايات المتحدة الأمريكية كقوة عظمى على هرم السلطة العالمية.

المرحلة السادسة: من الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١ حتى اليوم. حيث تميزت هذه المرحلة بقيام حرب شاملة تقودها القوة العظمى على هرم السلطة العالمية (الولايات المتحدة) ضد ما سمي بالإرهاب الدولي. ولقد توضح وتجلى في هذه الفترة استفراد الولايات المتحدة بالتحكم بالنظام العالمي الجديد " New World Order "

وبما أن هذه المراحل متفق عليها من قبل المختصين في العلاقات الدولية فأن هذا الكلام يعني أن هناك اسبقية تاريخية في الظهور، أي أن مفهوم الاستراتيجية ظهرت قبل مفهوم العلاقات الدولية بفترة طويلة فهل من الممكن أن يكون الاقدم (الاستراتيجية) جزء من الاحدث (العلاقات الدولية) أي أن الاستراتيجية قد ظهرت قبل العلاقات الدولية بأشواط طويلة، ودخلت المجالات التطبيقية في الحياة السياسية والعسكرية قبل العلاقات الدولية، على الرغم من أن مفهوم الاستراتيجية قد ظهر ملازماً للمعارك والحروب وإدارة وقياة الجيوش في المعارك، وعلى هذا الأساس إذا ما أردنا أن نضع مقاربة في مجالات العمل والتطبيق والشمول فنلاحظ الأتي:

مجال العمل والتطبيق: تعمل الاستراتيجية في المجالات كافة منها الداخلية والخارجية والتي تشتمل على الأمور السياسية والعسكرية والاقتصادية والاجتماعية والتقافية ... إلخ، بحيث أصبح هناك استراتيجية عسكرية واستراتيجية سياسية واستراتيجية اقتصادية

واستراتيجية اجتماعية وثقافية اضافتاً إلى الاستراتيجية العليا الشاملة للدول، بينما تعمل العلاقات الدولية في الخارج فقط، على الرغم من أن العلاقات الدولية هي نتاج للشؤون الداخلية ونابعة من الداخل ولكن هي تختص في الخارج فقط، عكس الاستراتيجية التي تعمل في الداخل والخارج وتشمل كل شي، فهل من الممكن أن يكون الاشمل جزء من الأصغر.

وهناك نقطة جدا مهمة يجب ذكرها أن العلاقات الدولية لم تنشأ إلا بعد نشوء الدول القومية، بمعنى أن ظهور الدول القومية في منتصف القرن السابع عشر، صاحب معه ظهور العلاقات بين الدول وهذه العلاقات تطورت مع تطور الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية للدول مما أدى إلى ظهور مصطلح العلاقات الدولية على أسس قانونية نظمتها الشرائع التي ولدت بعد معاهدة وستفاليا ، وهذا الكلم يثبت ان العلاقات الدولية تعد حقلاً حديثاً بالمقارنة مع مصطلح الاستراتيجية الذي يعد تاريخ نشاته تتجاوز العشرين قرن من الآن.

ويتفرع من ذلك ضرورة التمييز بين الإستراتيجية والسياسة الخارجية والتي هي جزء من العلاقات الدولية والتي تعبر عن الجانب السياسي الرسمي للدولة، فالسياسة الخارجية كما يعرفها "علي الدين هلال" مجموعة الأنشطة والتصرفات التي تقوم بها دولة ما إزاء الدول الأخرى بقصد تحقيق أهدافها في ضوء الحدود التي تفرضها قواعد التعامل الدولي وقوة الدولة، فتحرك السياسة الخارجية-و بضمنها الدبلوماسية والتي هي كلها تنضوي تحت لواء العلاقات الدولية-كأداة من أدوات الإستراتيجية داخل إطار بيئتها الخارجية (الإقليمية والدولية)، لذلك يرى الدكتور مازن الرمضاني إن العلاقة بين السياسة الخارجية والإستراتيجية هي كالعلاقة بين الوسيلة والهدف، بوصف الإستراتيجية الإطار الغائي الذي يضم الوسيلة السياسية الخارجية.

وأخيرا وبعد هذا الطرح الذي تطرقنا إليه لتوضيح كلى المفهومين من حيث الاسبقية التاريخية للمصطلح، ومن حيث الشمول و ومجالات الاستخدام والتطبيق، أقول أن هذا الكلام وعلى هذه البساطة لا يعبر الا عن وجه نظري الشخصية والنابعة من خلال القراءة للحقلين كجزء من الاختصاص في العلوم السياسية.